

الفصل السادس

عمليات ضد الموساد
الفضيحة التي هزت قل أبيب

فضيحة هزت تل أبيب

يسرائيل بير صديق بن غوريون

ومستشاره العسكري جاسوس سوفياتي

إنزعج (يسرائيل بير)^(١) أو بيكه كما لقبه الناس أشد الإنزعاج لاستدعاء أيسر هرثيل له، فقد كانت الرسالة التي تسلمها منه فظة غليظة ... تعال إلى مكنتي: وكان بير الذي أشتهر بأنه خبير في الشؤون العسكرية وواحد من أقرب المقربين إلى بن غوريون شخصية بارزة في الحياة الإسرائيلية العامة.

وخرج يسرائيل بير من الجيش في عام ١٩٥٠ ليمتهن السياسة ولكنه حافظ على اهتمامه بالأمور العسكرية وعلى صلته بها وكان يحضر اجتماعات رئاسة الأركان البالغة السرية ويحصل على ما يشاء من معلومات وكانت خطط الجيش ووثائق الدفاع ذات الأهمية القصوى تجد سبيلها إلى يده.. وفي عام ١٩٥٥ طلب منه أن يكتب تاريخاً رسمياً لحرب الإستقلال وخصصت له غرفة في وزارة الدفاع ليقوم بأبحاثه فيها.

وشاعت شهرة بير بوصفه خبيراً حتى خارج إسرائيل وكان بير في جولاته ومحاضراته بالمانيا ينبه جمهور الشبان المستمعين إليه أشد التنبيه إلى واجبهم تجاه وطنهم وإلى حاجة لجعل المانيا دولة ديموقراطية قوية في مواجهة الخطر الشيوعي القادم من الشرق.

واستحوذ بير على إعجاب قيادة حلف شمال الأطلسي الناتو في أوروبا للتحليلات البارعة التي قدمها عن الاستراتيجية اللازمة في حالة نشوب حرب برية في أوروبا وقد اثني عليه موظفوا وزارة الدفاع الفرنسية علانية لتفهمه الواسع المدى لمختلف الشؤون العسكرية.

(١) يسرائيل بير: عمل جاسوساً للمخابرات المصرية لمدة ١٥ سنة دون أن يدري من خلال علاقته بفتاة اسمها ريتانا من (موسكو) التي كانت تقدم له الخمور حتى الثمالة، وتقوم بتصوير الأوراق ونقلها للمخابرات المصرية.

ولم يكن من المستغرب إذن أن ينزعج بير عندما استدعاه ايسر بخشونة ذات مساء من خريف ١٩٦٠ إذ لم يبد ايسر هرثيل من الإحترام ما يتفق مع مكانته البارزة.

ولم يقم بير بأي جهد لإخفاء إنزعاجه عندما مشى في مكتب ايسر والسيجار في فمه ثم ألقى نفسه في الكرسي المقابل لمكتب رئيس الموساد ونفض بير الرماد عن سيجارة بنقرة من إبهامه تدل على إزدراء ثم انحنى في كرسيه إلى الامام وقال ببساطة لندخل في صميم الموضوع فأنا مستعجل.

وحدق ايسر إلى العينين اللتين لا تطرفان في رأس البروفسور الأصلع وكانت جميع ملامح وجه الزائر ذي الشارب الأصفر المميز الذي بدت فيه آثار رماد السيجار تشير إلى الإحتقار الموجه إلى هرثيل ولكن هذا لم يكن ممن يفزعون بسهولة فواصل التحديق إلى وجه بير وهو يوجه إليه سؤاليين موجزين قصيرين.

لماذا واصلت زيارتك إلى برلين الشرقية ولماذا سافرت إلى بولندا؟

وظهر ايسر بمظهر الديكتاتور الذي يتخذه أحيانا ورفع صوته قائلاً: ألم أحذرك قبلاً من الإختلاط بالشيوعين؟

وضرب المنضدة التي أمامه بقبضتي يديه بشدة وصاح: إنني أحذرك يا بير وأمنعك من السفر إلى أوروبا.

وعندئذ وثب البروفسور على قدميه غاضباً فلم يكن أحد حتى بن غوريون نفسه يجرؤ على التحدث إليه على هذا النحو وأجاب صائحاً:

اهتم بشئونك الخاصة فسوف أشكوك إلى رئيس الوزراء بل سأشكوك إلى الحزب أيضاً.

وعندئذ اندفع خارجاً من مكتب ايسر وانقضت عدة دقائق ورئيس الموساد يفكر في صمت فقد كانت الشكوك تُساوره بشأن "إسرائيل بير" عدة سنوات.

فقد كتب سلسلة من المقالات المعادية لأمريكا في أثناء الحرب الكورية وكان ايسر يعلم أن بير برغم إنضمامه إلى حزب بن غوريون الماباي الان كان متمياً فيما مضى إلى جماعه المابام وهي الجناح اليساري الأكثر تطرفاً وكان للبروفسور نشاط

قوي في مناصره الشيوعية آنذاك مما أدى به إلى تلك الجماعة أخيراً ولم ينضم إلى التحالف الحاكم برئاسة بن غورين إلا متأخراً وأصبح نهجه الجديد هو قل يعيش بن غورين ثم إفعل ما تشاء.

ولم يكن أيسر ليحارب بير على إنتمائه السياسي ولكنه كان يعجب لقدرة الرجل على تغيير إنتمائه على ذلك النحو السريع الحاسم. أما رئيس الموساد فلم يكن منتمياً إلى أي حزب ولكنه يعي ما يعتقدُه وعياً تاماً، وكانت انتهازية الرجل تثير الشكوك في نفسه.

وبعد رحيل الخبير العسكري المفاجئ انزعج أيسر الجالس في مكتبه مرة أخرى لشيء قاله ألا هو التحذير الذي وجهه بير حال مغادرته بقوله سوف أشكوك إلى الحزب فما الذي يقصد بذلك ؟ كان بير يعلم أن أيسر لا ينتمي إلى أحزاب.

وكانت الطريقة شديدة اللهجة التي تحدث بها البرفسور "بير" إلى أيسر هرتيل.. فلم تكن هذه الكلمات بمثابة مفاجأة وبدا هذا التحذير الصادر عن رجل اعتاد تمثيل شخصية المحلل المنطقي البعيدة عن الإنفعال وبرزت ملامح التعقيدات الفكرية الذي تميز به "بير".

وتملك أيسر حالة من الإنزعاج الشديد بشأن "بير" فكان من الضروري إطلاع بن غوريون ونقل شكوكه إليه.. ولكنه ظن بأن شكوكه هذه قد تأخذ على أنها غير من شخصية "بير" لشهرته ونفوذه.. فلم يتراجع أيسر عن قراره، فذهب لمقابلته وإخباره عن شكوكه تجاه "بير" وقال: يقوم بير من زمن بجمع معلومات عسكرية لا تتصل به في شيء وهو يزور المدن الشيوعية في رحلاته إلى أوروبا، وتربطه صداقات كثيرة مع الدبلوماسيين الروس العاملين في إسرائيل الذين يقابلهم كثيراً.

وقد بدت في حياة بير الاجتماعية بعض الجوانب الغربية مؤخراً فهو ينفق أموالاً طائلة تزيد عما يكسب في ملاهي تل أبيب وعندما كان في ميونيخ مؤخراً دفع مبلغ ٢٠٠ دولار دون أدنى اهتمام وقد كان يشتري لنفسه ولعشيقاته ومنهن من يشك في سلوكهن، ملابس غالية الأثمان أما علاقته مع زوجته رفكا فهي سيئة جداً وهو

يقضي ليااليه يعاقر الراح في الحانات كحانه اتوم في شارع بن يهودا وكان صوت ايسر مفعماً بالغضب لفساد أخلاق بير فهو لم يعرف الإنغماس في هذه الرذائل طيله حياته.

وقال ايسر: من الجلي عندي أن بير يعاني من إجهاد ما هو إجهاد العميل الذي يمثل دورين في الحياة ومنذ وقت قريب تورط في فضيحة عامة فقد هاجمه زوج إحدى عشيقاته ووجه إليه لكمات في وجهه وهشم بعض أسنانه.

وكان بير قد أخبر رئيس الوزراء بأنه فقد تلك الأسنان في حادث سيارة واختار بن غوريون تعليله ذلك على ما قاله ايسر وبقي راسخاً في عدم الإقتناع بدعاوي ايسر.

ورد بن غوريون بهدوء: من واجبك أن ترتاب في كل شخص كائناً من كان أما أنا فثقتي مطلقه بهذا الرجل.

وانتهت المقابله بينهما بذلك ولكن المسألة بقيت قائمة لدى ايسر فأمر عملاؤه بتشديد الرقابه على بير وأخذ فريق التحري يُنقب في ماضيه للتأكد من وجود جوانب مريبة أو انصاف حقائق في سيرة حياته كما أخبر أصدقاءه وزملاؤه.

كان ايسر يسعى للتحقيق من تخميناته المشهورة.

وفي عام ١٩٩١ ليلة ٢٨ آذار وبعد حوالي ثمانية أشهر من المواجهه الدرامية التي تمت بين ايسر هرثيل وبين إسرائيل بير في مكتب رئيس الموساد كان اليهود يحتفلون بعيد الفصح وهو أحد من أخصب الأعياد وأحبها إلى اليهود ففيه يحتفلون بالخلاص من العبودية في مصر وفي منازل اليهود في جميع أرجاء العالم تجلس العائلات حول الموائد لتناول (السيدر) وهي وجبة عيد الفصح التقليدية التي تتلى معها حكاية الخلاص.

في الساعة الثامنة من ذلك المساء خرج رجل من شقته الواقعه في ٦٧ شارع برانديس في تل أبيب وكان المساء دافئاً ولكن النسيم العليل الذي يهب من البحر الأبيض إلى الشاطئ حمل ذلك الرجل إلى تزيير معطفه وكانت في يده حقيبة أوراق جلدية.

واسرع الرجل خطاه في الشارع الخالي من المارة وهو يلتفت من حوله كما لو أراد التأكد من أن أحداً لا يقتفي خطاه واستدار جانبي وتوقف قليلاً في ظل كابينة للهااتف وكان يهت أنذاك بالرغم أنه لم يبتعد أكثر من ٢٠٠ متر عن شقته التي خرج منها وتوقف لحظات قليلة لإلتقاط أنفاسه ثم يلفت من حوله مرة أخرى وعندما تأكد بعدم ملاحظته أحد في الجوار انطلق متجهاً إلى الشارع فخفض قليلاً نحو مقهى صغير يقبع في إحدى زوايا الشارع.

وسعد صاحب المقهى الذي كان يجلس وراء الباب بمشاهدة أول زبون يراه في ذلك المساء وطلب هذا الزبون زجاجة كونيالك ومضى بها إلى منضدة في زاوية الحانه بعيداً عن أضواء الشارع الساطعه ووضع حقيبة أوراقه الجلدية على مقعد مجاور وعندما حاول صاحب المقهى بأن يتجاذب الحديث مع الزبون .. عندها أشار إليه بعدم رغبته في ذلك ، ومضى يحتسي الكونيالك في صمت ثم أشعل الرجل سيجارة ونظر بقلق إلى ساعته.

وبعد خمس دقائق دخل رجل آخر للمقهى وكان يرتدي بدلة سوداء قاتمة وعلى رأسه قبعه ذات حافه عريضة وبعد أن لوح بيده للزبون الجالس إقترب منه وجلس على كرسي مقابل له حول المنضدة.

ولم يتبادل الرجلان شيئاً من الحديث وبعد لحظات من الجلوس نهض الوافد وخرج من المقهى.

وفي يده كانت اوراق الرجل الاخر وبعد ثوان معدودات نهض الزبون ودفع ثمن الشراب وبدون أن ينبس ببنت شفة غادر المقهى ، ليلفه الليل في حين شرع صاحب المقهى في كنسه وتنظيفه وفي الخارج تلفت الرجل الطويل حوله مرة أخرى قبل أن يسير نحو منزله.

وعاد أدراجه في الطريق الذي جاء فيه وإن كان صفر اليدين الآن.

وعندما بلغ الرجل الطويل باب المبنى الذي تقع فيه شقته دخل منه دون أن يكلف نفسه عناء التلفت فيما حوله كان مطمئناً إلى أن أحداً لم يتعقبه وبعد أن صعد الدرج

المؤدي إلى شقته دخل فيها واتجه صوب مكتبته التي تعمر جدرانها كتب من عدة لغات وهناك جلس يرتقب.

منتصف الليل صوت سيارة مسرعة يمزق سكون الليل في ذلك الشارع وعند رقم ٦٧ أوقفت السيارة ونزل الرجل الغريب ذو القبعة وهو الرجل الثاني الذي زار المقهى القريب قبل بضع ساعات.

وكانت في يده حقيبة الأوراق التي اخذها من صاحبه وسار هذا الرجل إلى باب المبنى رقم ٦٧ ودخل بدون أن يطرق على الباب ومن الواضح أن قدومه لم يكن مفاجئاً وأنه لم يتوقع المكوث طويلاً فقد ترك محرك سيارته بدون توقف.

دق جرس الهاتف في منزل ايسر هرثيل وتناول ايسر السماعه على الفور فقد كان ينتظر هذه المكالمه التي عرف فيها صوت واحد من كبار عملائه ولم يكن من داع للإعتذار عن المكالمه في ليله العيد تلك.

جرت مقابله بين رجلنا وبين رجل الاتصال الروسي للمرة الثانية في هذا المساء فقد تقابلا في المقهى الصغير الذي تعرفه وكان مع رجلنا حقيبة أوراق سلمها إلى رجل الاتصال ثم افترقا.

وقمت بتعقب خطى رجلنا حتى المنزل وأنا الآن في خارج المكان وقد دخل الرجل الروسي قبل لحظات ومعه حقيبة الأوراق التي تسلمها في المقهى وهو مع رجلنا الآن في الداخل.

وكان ايسر بالغ القلق ولكنه لم يفاجأ بما حدث فرقم ٦٧ شارع برانديس هو عنوان إقامه إسرائيل بير.

قرر ايسر أن الوقت قد حان ليضرب ضربته ولكن ينبغي أن يتم كل شيء بطريقه صحيحة وبارعة فالقاء القبض على البروفسور الآن وهو متلبس بتسليم الوثائق إلى أحد الدبلوماسيين السوفييت الذي عرف عنه أنه من أكبر جواسيس روسيا في إسرائيل سيكون له انعكاسات دولية ربما إلى إسقاط حكومة بن غوريون.

وقرر ايسر الانتظار حتى يغادر الدبلوماسي منزل بير قبل الشروع في العمل وفي أثناء ذلك طلب من عميله الحصول على أمر بالتفتيش في منزل إسرائيل بير واعتقاله.

ينبغي أن يتم كل شيء بصورة قانونية أو لا يحدث البتة.

وبعد أن وضع ايسر سماعة الهاتف رفعها على الفور مرة أخرى واتصل بين غوريون لم تستغرق محادثتهما أكثر من عشر دقائق قال فيها ايسر سألقى القبض على إسرائيل بير هذه الليلة وتردد بن غورين لحظة ثم قال: قم بواجبك وانتهت المحادثة بذلك.

كانت الساعة تشير إلى منتصف الثالثة في الصباح وإسرائيل بير جالس يقرأ في مكتبه وحقيبة الأوراق ملقاه على المنضدة القريبه في الموضع الذي تركها فيه بعد مغادرة زائرته دون المساس بشيء من محتوياتها وفجأة طرقة على الباب.

وقبل أن يتمكن بير من إخفاء الحقيبة أو حتى النهوض من كرسيه العتيق إنكسر الباب وكانت ضربة وحيدة كافية لخلعه من مفصلاته.

وإندفع صف من سبعة رجال في داخل الشقة ووقفوا من حول بير الذي كان يجلس متجمداً في كرسيه وقال أحدهم بهدوء: إنك معتقل الآن ولدينا أمر بتفتيش الشقة.

وشاهد بير الضابط يوجه بصره إلى الحقيبة وأجاب بهدوء بتلك الكلمات التي تفوه بها بن غورين قبل ساعات في المكالمات الهاتفية مع هرثيل "قم بواجبك".

وكان بير يعلم حق العلم من هو ضابط الاستخبارات المضادة الذي تحدث إليه فقد كان يعرف اسمه الشخصي منذ عدة سنوات ولم يزد على أن قال: هل تمانع في أن أدخن ؟

كان ضابط الموساد المستول عن اعتقال بير يعلم أنه يتعامل مع رجل من أبرز شخصيات البلد فقد كان بير محاضراً في مدرسة الجيش التي تدرّب فيها الضابط وكان كولونيلاً في الإحتياط ومستشاراً ناصحاً لوزارة الدفاع ورئيس الوزراء نفسه وقد أحس الحاضرون بالصدمة جميعاً إذ لم يكن العملاء يصدقون أن الرجل الذي

قدموا لاعتقاله إنما كان واحداً من جواسيس السوفيات ألا يمكن أن يكونوا مخطئين في شأنه لقد كانوا يتمنون ذلك.

بيد أن شكوكهم مهما كان أمرها سرعان ما تبددت عندما فتح الضابط الحقيبه الجلد التي كانت ما تزال على المنضدة القريبة من بير وفي داخل الحقيبه شاهد الضابط عدد من الوثائق البالغه السرية ومنها قائمة مفصلة لمصانع الاسلحة الكبرى في إسرائيل وفوق ذلك كله شاهدوا مفكرة بن غورين الخاصة التي استعارها البروفسور حين عبر له عن رغبته في كتابة سلسلة من المقالات عن فلسفة بن غوريون في القيادة والحكم ولم تكن هذه المفكرة تحتوي على أكثر أفكار بن غورين الخصوصية فحسب بل كانت تحتوي فوق ذلك على أعداد من أسرار الدولة التي كان وزراء الحكومة يجهلون بعضاً منها عندما قدم ايسر هرثيل مفكرة بن غوريون إليه علق أن الحادث كان أليم الوقع علي نفسه وقد أحجم ايسر عن الإشارة إلى أنه أعرب عن ارتياحه من بير في وقت مبكر يعود إلى ١٩٥٣ ومن الأمور التي تسجل له ولموشيه دايان أن كلاهما قد قاوم رغبة بير في الالتحاق بالجيش وأن بير قد اتكأ على صدقاته للوصول إلى جمع الوثائق الهامة بالجيش.

اطمأن ايسر الآن إلى أن بير كان يعمل لصالح موسكو لعدة سنوات ولكن إصراره أثناء مراحل الإستجواب الأولى لم تصل معه بشيء ولم يغير طوال فترة الإستجواب بل كان يتباهى بسيرة أصدقائه وزملاءه لعدة سنوات.

وفقاً لرواية بير عن سيرة حياته ولد في فيينا عام ١٩١٢ وهاجر والده إلى الولايات المتحدة ولكنهما عادا إلى أوروبا بعد وقت قصير، ودرس بير الإنسانيات والأدب الألماني في جامعه فيينا حيث تتلمذ كما زعم على يد ماكس راينهاردت رجل المسرح المعروف، وفي أثناء دراسته بالجامعه انضم إلى الطلاب الذين تمردوا ضد الديكتاتور انغلبرت دولفوس واشترك في حرب الشوارع ضد النازيين في عام ١٩٣٤ وتدرّب بير في أكاديمية فينزنویشنات العسكرية كما قال وأصبح ضابطاً في الشوتسباد أو حلف الدفاع النمساوي.

وفي عام ١٩٣٦ كما قال بير ذهب إلى اسبانيا للقتال إلى جانب لواء الأمميين ضد الفاشيين في الحرب الأهلية الأسبانية وقد خوله تدريبه العسكري أن يصبح مدرباً هناك وتعرف بير على جميع كبار العسكريين الشيوعيين واشترك معهم في معركتي مدريد وغوادا لجارا الشهرتين وساهم بير أيضاً في معركة تيرول الضاربة وفي أوائل عام ١٩٣٨ حين تبين أن الحرب ستكون خاسرة هرب من أسبانيا وطلب منه السفر إلى موسكو ليلتقي تدريباً إضافياً ولكنه بدلاً من ذلك عاد إلى فيينا حيث تأثر بالفكر الصهيوني بعد وقت قصير صح عزمه على الهجرة إلى فلسطين وقال بير لأسرته متحدياً: هذه هي قصة حياتي مثلما تعرفون جميعاً.

وفي ذلك اليوم الرابع من بدء الإستجواب زاره ايسر هرثيل وكان هذا يعلم أن السجين لا يبدي أي تعاون من جانبه فدبر شيئاً ما لمواجهة. وحدث هرثيل إلى عيني بير كما فعل في لقاءهما الأول قبل عدة أشهر وقال له في نبره هادئة وعنيدة في الوقت نفسه:

أنا أعرف أنك جاسوس سوفيتي أخبرني بالحقيقة إذا تعاونت معنا فسوف تسهل الأمر على الجميع وعلى نفسك أيضاً، أخبرني حكايتك الحقيقية وفي مواجهه هذا التحدي أعاد بير القصة ذاتها مرة أخرى حتى إذا فرغ منها قال له هرثيل بهدوء "كذاب" ولم نجد أي أثر لوالديك في النمسا ولو كانا يهوديين نموذجيين كما تدعي فلماذا لا تكون "مختوناً".

لقد فحصنا جميع السجلات النمساوية فتوصلنا إلى أنك لن تقاتل في متاريس الشوارع ولم تحصل على شهادة الدكتوراة كما تدعي بل إنك لم تدرس في الجامعة ثم إنك لم تذهب إلى الأكاديمية العسكرية فقد كان هذا محظوراً على اليهود آنذاك وقد طلبنا دراسة قوائم الأسماء فلم يعثر على اسمك فيها وليس اسمك موجوداً في قوائم الشوتسبايد كذلك.

ونقبتنا في سجلات لواء الأمميين ولم نعثر على اسمك فيه إنك لم تحارب قط في اسبانيا والواقع إنك لم تساهم في أي حملة عسكرية في أي مكان من العالم.

والآن قل لي: من أنت ؟ أخبرنا الحقيقة.

واتضح لـ "بير" أن الموساد قد عري زيف إدعاءاته فانهار وفي الأيام الثلاثة التالية أملى تقريراً وافياً بنشاطاته التجسسية.

وكان هرثيل قد اشتبه في أن موسكو قد نشطت بير بعد حملة السويس في عام ١٩٥٦ وألحت عليه في تلك الفترة في تقديم أية معلومات يمكنه الحصول عليها وعندما كانت فرنسا تزود إسرائيل بالأسلحة التي اشتريتها إسرائيل من ألمانيا كما أنه جمع ما استطاع من المعلومات عن دور ألمانيا في حلف الأطلسي الناتو في أثناء سفره إلى ألمانيا وكانت أبحاث بير العلمية الخاصة في التكنولوجيا النووية خصوصاً أحد الموضوعات التي يحتمل أن يكون رؤساء بير في موسكو قد طالبوه بتقديم معلومات عنها.

وبقى بير يمزج الحقيقة والوهم حتى في أثناء بوحه بإعترافاته فقام عملاء الموساد وحلفاؤهم في إسرائيل وأوروبا ومنها البلدان الشيوعية بالتحقق من كل كلمة تفوه بها وأثبت البحث الدؤوب الذي قاموا به بطلان الكثير من إدعاءته.

بدأت محاكمة بير في حزيران ١٩٦١ وأدت طبيعة الكثير من الأدله في القضية إلى بقائها سراً وكذلك بقيت بعض اعترافاته بشأن الطريقه الدقيقه التي نقل بها المعلومات إلى موسكو سراً مكتوماً حتى يومنا هذا ومن المعلوم على كل حال أنه قد نقل للروس خططاً عسكريه تتصل بتكتيك القتال كما نقل قوائم عن منشآت عسكريه سريه فضلاً عن معلومات حول من يزودون إسرائيل بالأسلحة من الجانب.

وفي أثناء المحاكمة دافع بير عن نفسه بأنه فعل ما فعله لاعتبارات وطنية وقال: لقد شعرت بأن من واجبي المساهمة في إنقاذ إسرائيل من الوقوع في قبضة القوي الغربيه.

واعتقد أن على إسرائيل التحالف مع البلدان الشيوعية وأنا لم أخن إسرائيل قط وإنما كانت جميع جهودي رامية إلى إبعادها عن الطريق المؤدي بها إلى كارثة.

التجسس الإسرائيلي لا يزعج البيت الأبيض

قنبلة جديدة غير مدوية تفجرت في العلاقات الأمريكية الإسرائيلية وتم احتواؤها بين مسؤولي الطرفين إنها قنبلة الحكم على الجاسوس الإسرائيلي الأمريكي جوناثان بولارد الموظف في البحرية الأمريكية والصادر عن محكمة أمريكية في واشنطن بالسجن مدى الحياة بسبب تسريبه معلومات أمريكية عن القوة العسكرية العربية والسوفييتية إلى إسرائيل كما حكمت على زوجته الن بولارد بالسجن خمس سنوات لمساعدة زوجها في نقل معلومات سرية إلى العدو الصهيوني.

وجاء في مذكرة وزير الدفاع الأمريكي كاسبار واينبرغر إلى المحكمة أن الجاسوس اليهودي الأمريكي أكد أنه يشعر وكأنه طيار إسرائيلي وأن ولاءه هو أكبر من ولاءه لأمريكا.

والذين تابعوا قضية بولارد خصوصاً من المسئولين الأمريكيين يدركون أن الوثائق السرية التي نقلها بولارد إلى إسرائيليين تكفي لشغل المخابرات الإسرائيلية لزمناً طويلاً وآت وكما كشفت التحقيقات فإن هذا اليهودي الأمريكي كان يمد إسرائيل بانتظام بمعلومات أمريكية غاية في السرية تتضمن أسراراً لصنع القنابل النووية والشفرة السرية للأسطول السادس الأمريكي في البحر الأبيض المتوسط وكل تفاصيل المعلومات الأمريكية عن أسرار تسليح وإمكانات مصر والأردن والسعودية.

وهذه الفضيحة التجسسية لم تخجل إسرائيل وإن حاولت دبلوماسياً وحتى لا يغضب الشعب الأمريكي التقليل من آثار الفضيحة فقد صرح أربيل شارون بأنه ليس لدى الولايات المتحدة ما تقوم به إسرائيل وإنما العكس هو الصحيح وأنه يكفي أن إسرائيل هي التي ساعدت أمريكا طوال سنوات قيامها بما يساوي ٢٦ مليار دولار في النفقات العسكرية ومن بينها معلومات تجسسية تساوي ٢٨ مليار دولار أعطتها إسرائيل إلى الولايات المتحدة عن السوفييت والعرب في سياق تبادل المعلومات.

وقد أكد مسئول في الاستخبارات الإسرائيلية "نحن قادرون على أن نحصل على ٩٥% من المعلومات التي نحتاج إليها من الولايات المتحدة".

وكشف كتاب جواسيس نهاية العالم للمؤلف مايكل سابا الذي صدر في الولايات المتحدة عام ١٩٨٤ حقائق ومعلومات واقعية مدعومة بالاسماء والوثائق عن المافيا الصهيونية في الإدارة الأمريكية وأساليب عملها في سرقة الأسرار من البنتاغون وتزويد إسرائيل لها.

ففي أواخر الخمسينات وأوائل الستينات اختفت كميات هائلة من اليورانيوم من المختبرات الأمريكية ولم تحرك الإدارة الأميركية ساكنة رغم علمها بأن عملاء إسرائيل داخل الولايات المتحدة هم الذين سرقوا هذه الكميات لتعزيز الصناعات الذرية في الكيان الصهيوني.

أشهر جواسيس الموساد الإسرائيلي في مصر

محمد إبراهيم كامل الملقب بـ "ماريو"

خسر ورشته على الراقصات فكان الموساد ملازه

منذ أن تفتحت عيناه على ضجيج الحياة في حي محرم بك المزدهم ذاب عشقاً في جرس الترام.. الذي كلما ملأ أذنيه خرج إلى الشرفة يبتسم في انبهار وحيرة.. فنشأت بينه - منذ طفولته - وبين الترام قصة غرام دفعته للهرب من مدرسته.. والسعي وراء راكباً لجميع خطوطه المختلفة ومحطاته.. ولم يدم هذا الحب كثيراً إذ اندفع فجأة نحو السيارات فالتصق حباً بها.. والتحم عقله وقلبه الصغير بموتور السيارة مستغرقاً وقته كله.. حتى أخفق في دراسته الابتدائية.. وأسرعت به خطاه إلى أول ورشة ميكانيكا السيارات يمتلكها إيطالي يدعى الخواجة "روبرتو" الذي اكتشف هذا الحب الجارف بين الولد والموتور فعلمه كيف يتفاعل معه؟! ويفهمه ويستوعبه.

ولم تكد تمضي عدة أشهر فقط إلا وكان محمد أشهر صبي ميكانيكي في ورشة الخواجة "روبرتو" .. كانت السيارات تقف موازية للرصيف بجوار الورشة بأعداد كبيرة.. تنتظر أنامل محمد الذهبية وهي تداعب الآلة المعدنية الصماء.. وتتمر بين أجزائها في تناغم عجيب فتعمل بكفاءة ويتحسن صوت "نبض" الموتور.. ويزداد الصبي شهرة كل يوم.. ورغم محاولات البعض استدراجه واستثمار خبرته وشهرته في عمل ورشة "مناصفة" بعيداً عن روبرتو، أُجبروا على أن يتعاملوا معه كرجل لا كصبي في الخامسة عشرة من عمره.. وكثيراً ما كان ينزعج عندما كان يخرج إلى الكورنيش مع أقرانه بسبب توقف السيارة ودعوة أصحابها له ليركب حتى منزله، فكبرت لدى الصبي روح الرجولة وارتسمت خطوطها المبكرة حيث كان مبعثها حبه الشديد للعمل والجدية والتفكير الطويل.

وبعد عدة سنوات كانت الأحوال والصور قد تغيرت.. صار الصبي شاباً يافعاً خبيراً بميكانيكا السيارات. تعلم اللغة الإيطالية من خلال الخواجة روبرتو والإيطاليين المترددين على الورشة وأصبح يجيد التعبير بها كأهلها.. فأطلق عليه اسم "ماريو". وعندما طاردهته نظرات الإعجاب من "وجيدة".. دق قلبه بعنف وانتبه لموعده مرورها أمام الورشة حين عودتها من المدرسة.. فواعدها والتقى بها ولم يطل به الأمر كثيراً.. إذ تقدم لأسرتها وتزوجها بعدما أقنعتهم رجولته وسمعته الحميدة وشقته الجميلة في محرم بك..

ثمانية أعوام من زواجه وكانت النقود التي يكسبها تستثمر في ورشة جديدة أقامها بمفرده.. ومنذ استقل في عمله أخذ منه العمل معظم وقته وفكره حتى تعرف على فتاة قاهرية كانت تصطاف مع أهلها بالإسكندرية وأقنعها بالزواج.. ولأنها كانت ابنة أسرة ثرية فقد اشترى لها شقة في الدقي بالقاهرة وأثنها.. وأقام مع عروسه "تغريد" لبعض الوقت ثم عاد إلى الإسكندرية مستغرقاً في عمله متنقلاً ما بين "وجيدة" و"تغريد" ينفق هنا وهناك.. وعندما توقف ذات يوم على الطريق الصحراوي بالقرب من الرست هاوس بجوار سيارة معطلة.. أعجبهت صاحبة السيارة ودار بينهما حوار قصير.. على أثره ركب مع السيارة الرائعة إلى القاهرة.. وفي الطريق عرف أنها راقصة مشهورة في شارع الهرم.. سهر معها في الكباريات وتنقل معها هنا وهناك.. ثم اصطحبت معها إلى شقتها.. واعترف ماريو أن هذه الراقصة كانت أول من دفعه والخطوة الأولى نحو جبل المشنقة.. ويقول في اعترافاته التفصيلية.. في تلك الليلة شربت كثيراً وكلمت رأيت جسد الراقصة المثير يرتعش أمام الزبائن ترتعش في جسدي خلجات الرغبة، وبعدها انتهت من فقراتها الراقصة في أربعة كباريات.. عدنا إلى شقتها في المهندسين وبدلاً من أن أنام أو أذهب لشقتي حيث تنتظرني تغريد.. وجدنتني أطوق خصرها بشدة وأطلب منها أن ترقص لي وحدي، فأبدلت ملابسها وعادت لي بلباس الرقص الشفاف الذي سلب عقلي وأفقدني الصواب.

وذهبت اللى تغرلء الل وءءءءا ءءءاق إلى ءلوبل قبلما ءءءاق إلى .. فافءءءء مشاءرة معها وءءء ءأنة إلى الراقصة الل اسءقبلءنل بفرءة .. ومنء ذلك اللوم وأنا لا أكاء أفارءها أو أبءءء عنها لأواصل عملل فف الورءة.

لءء اسءءءء ببعض الصبلبة الللن ءربءهم على القللام بالعمل بءلاً منل.. فكنء آءعب لعدة أيام فف القاهرة وأعود لأءمع ما ینءظرنل من مال لءلهم.. وسرعان ما أءءع لأنفءه على ءءاعرال والراقصات.. ونساء بلعن بنالءهن ورجال بلبعون لحم زوءاءءهم من آءل ءنلهاء قللة.

ولأن للفلوس مفعول السءر فءء كءء أءامل كملك.. لأننل أصرف بلءء على من لءطن بل من فءللال ونساء أشبعنل ءءلاً . . وصورنل كأئنل الرءل الأول لءلهن؁ فأءلءء بلل ومءءءءا إلى مءءراءل فف البنك شلئاً فشلئاً ءءل أصبح رصلءل صفرأ وءءولء الورءة إلى ءرابه بعءما سرق الصبلان أءواءها وهرب منها الزبائن.. ءاولء أن آءوب إلى رشءل وكان الوءء قء فاء؁ وءسراء سمعءل بعءما ءسراء نفسل.. وأصبعء مصارلف وءلءة وءغرلء ءمءل عبأاً قاسبأ على نفسل وأنا اللل لم بلعءنل الءوع أو ءءقلنل الءاءة من قبل.. فءألء لءالل وقرراء أن آءطو ءطوة سرفعة إلى الأمام.. وإلا فالمسءقبل المءهول ینءظرنل والفقر بلعسل ورائل بشراسة ولا أسءطلع مءابءه.

اسءءءرءء ءواز سفر وءصلء على عناوین لبعض زبائنل القءامل فف إءطالل وركبء السفلنة الإءطاللـة "ماركو" إلى نابولل.. وبعءما رألء أضواء الملنء ءءلاً على صءءة الملاء صءء بأعلى صوءل ءشاو .. ءشاو نابولل. وفف بنسلون قءلم وقف أمامه صاءبه العءوز سألءه هل زراء مصر من قبل؟ فقال الرءل لا.. ءءكء وقلء له أننل رألءك فف الإسكندرفة منذ سءواء فءاءءنل زوءءه ءسبءها ءمم من الشءائم قائلـة: ماذا ءرلء أبلها المصرل من زوءل؟ آءظن أنك فهلول؟ انءبه لنفسك وإلا . . ففل نابولل بلقولن: إذا كان المصرل بلسرق الكءل من العلن.. فنءن نسرء اللبن من فنءان الشالل.

وكان استقبالاً سيئاً في أول أيامي في إيطاليا.. في اليوم التالي حاولت أن أتعرف على السوق وبالأخص أماكن بيع قطع الغيار المستعملة.. ولكن صديقاً إيطالياً توصلت إليه أخبرني أن في "ميلانو" أكبر أسواق إيطاليا للسيارات القديمة والمستعملة.. وثنها يعادل نصف الثمن في نابولي.. فأتجهت شمالاً إلى روما وقطعت مئات الكيلو مترات بالقطار السريع حتى ميلانو.. وبالفعل كانت الأسعار هناك أقل من نصفها في نابولي.. والتقيت في ميلانو بأحد زبائني القدامى الذي سهل لي مهمتي.. ولفت انتباهي إلى أماكن بيع منتجات خان الخليلي في ميلانو بأسعار عالية.

ابتعت طلباتي من قطع غيار سيارات الفيات ١٢٥ غير المتوافرة في السوق المصرية وعدت إلى الإسكندرية وخرجت من الجمرک بما معي من بضائع بواسطة زبائني الذين يعملون في الدائرة الجمركية.. وقمت ببيع قطع الغيار بأضعاف ثمنها وذهبت إلى خان الخليلي واشترت بعضاً من بضائعه وسافرت مرة ثانية إلى إيطاليا.. واعتدت أن أنزل ببينسيون "بياتريشي" في روما ثم أتجه إلى ميلانو لعدة أيام .. أنجز خلالها مهمتي وأعود ثانية إلى روما ونابولي ثم إلى الإسكندرية.

اعتدت السفر كثيراً وبدأت الأموال تتدفق بين أصابعي من جديد.. واتسعت علاقاتي بإيطاليين جدد بالإضافة للأصدقاء القدامى الذين يكونون لي كل الود.. وفي ذات مرة وبينما كنت في خان الخليلي أتقي بعض المعروضات التي أوصاني صديق إيطالي بشرائها.. سألتني فتاة تبيع في محل صغير عما أريده .. وساعدتني في شراء بضائع جيدة بسعر رخيص وتكررت مرات الذهاب للشراء بواسطتها ولما عرفت أنني أسافر الي إيطاليا بصفة مستمرة عرضت علي أن تسافر معي ذات مرة . لتشتري سيارة فيات مستعملة لتشغيلها تاكسياً في القاهرة.

واطمأنت "زينب" وهذا هو اسمها - عندما أخبرتها أنني أعمل ميكانيكياً وأقوم بالإتجار في قطع الغيار.. وتركتها لتجمع المبلغ المطلوب ثم أرسل لها من إيطاليا لأنظرها هناك.

أراد أصدقائآ الإطالآف أن أظل بفنهم وأمارس عملاً ثابتاً أأصل بمقتضاه على إقامة فف إطالفا.. وقد كان.. إذ سرعان ما وجدوا لف عملاً فف شركة "راواتفكس".. وبعءما أاصلت على تصرف عمل وإقامة.. لم تتوقف رحلاتف إلى الإسكندرفة.. فالأكسب كان فشح على السفر بصفة مسفرة لكف أعراف اأفااااا سوق قطع ففار السفاارات فف مصر.. والذف كان فمفصها بسرعة فائقة.

وفف إأى هذه السفرفاا وبفنا كانت فف مطار روما تقابلت بالصفة مع صدفق إطالفا قدفم - ففوفف - كانت بفنا "عشرة" طوفلة واسمه "لفون لافف" ففبافلنا العناوفن؁ وبعء عدة أيام آاءتف مكالمة تلففونفة منه وتواعدنا للقاء فف مطعم مشهور فف مفلانو.

أشفق "لافف" كئفراً على آالف بعءما شرحت له ظروفف وتعثراتف المالفة وزواآف من امرأتفن .. وسألته أن ففبفر صفةة آآارفة كبفره أآنف من ورائها أموالاً طائلة.. فضآك "لافف" وقبل أن فقوم لفنصرف ضربنف على ظهر فدف وقال لف: "لا تفلق مارفو.. آءاً سأآء لك آلا؁ لا تفلق أبداً".

الوقوع فف المصفة

فف الأفوم الآالف وفف الآامنة مساء وقفت مرآبكا للآظاا أمام الباب المغلق.. ثم نزلت عدة درآاا من السلم وأآرآت علبة سآائرف وأشعلت سفآارة.. وعنءذ سمعت وقع آطواا نساءفة بمءآل السلم فانتظرت مرءءاً.. وعنءما رأفآ الفآة القاءمة كآا أسقط على الأرض.. كانت هف بنفسها الفآة الآف واقعتها فف شقة "لافف" لكن ابآسامتها آفن رأآف مسآا عنف مآاهر القلق وهف تقول: بونآورنو.. فرءآا آآفها بفنا كانت تسآبنف لأصعد درآاا السلم ولازالآ ابآسامتها تعطفف وآهها وقالآ فف ءلال الأنثف المآبب: - أنا لم أآبر سنفر للافف بما آآا منك.. قلت فف ثقة الرآل: لماذا؟ ألم فهءفنف بالانآآار من النافذة؟ .. بهمس كأنه النسفم فشدو: أفا الفرعونف الشرس أذهلآف آرآك ولم آآرك لف عقلاً لأفكر.. آآف أنفف كنت أآلم بعءها ب "أونالآرا فولآا"؁ لكنك هرفآ!! قلت لها: فالفآف فهمت ذلك. وانفآآ الباب وهف تقول:

هل ترفض دعوتي على فنجان من القهوة الإيطالية؟ ووجدت نفسي في صالة القنصلية الإسرائيلية والفتاة لا زالت تسحبني وتفتح باب حجرة داخلية لأجد "لابي" فجأة أمامي.. قام ليستقبلني بعاصفة من الهتاف: ميو أميتشو.. ماريو.. أهلاً بك في مكتبك. وهلت الفتاة قائلة: تصور.. تصور سنيور لابي أنه لم يسألني عن اسمي؟ قهقهه لابي واهتز كرشه المترهل وهو يقول بصوت جهوري: شكرية.. شكرية بالمصري سنيور ماريو تعني: جراتسيللا.. واستمر في قهقهته العالية وصرخت الفتاة باندهاش: أيكون لاسمي معنى بالعربية؟ اشرحه لي من فضلك سنيور ماريو.. وكانت تضحك في رقة وهي تردد: شوك.. ريا.. شوك.. ريا.. جراتسيللا شوك.. ريا.

ولم يتركني لابي أقف هكذا مندهشاً فقال للفتاة: أسرع بـفـنجانين من الـ"كافي" أيتها الكافيتيرا جراتسيللا.. واستعرض لابي في الحديث عن ذكرياته بالإسكندرية قبل أن يغادرها الي روما في منتصف الخمسينيات.. وأفاض في مدح جمالها وشوارعها ومنتزهاتها.. ثم تهدج صوته شجناً وهو يتذكر مراتع صباه وطال حديثاً وامتد لأكثر من ساعتين بينما كانت سكرتيرته الساحرة جراتسيللا لا تكف عن المزاح معي وهي تردد: شوك.. ريا.. سنيوريتا شوك.. ريا.. وعندما سألتني أين أقيم فذكرت لها اسم الفندق الذي أنزل به.. فقالت وكأنها لا تسكن ميلانو: لم أسمع عن هذا الفندق من قبل.. رد لابي قاتلاً: إنه فندق قديم غير معروف في الحي التاسع "الشعبي".

قالت في تأفف: أوه.. كيف تقيم في فندق كهذا؟ قال لابي موجهاً كلامه إليها: خذيه إلى فندق "ريتزو" وانتظراني هناك بعد ساعتين من الآن.. وربت لابي على كتفي في ود وهو يؤكد لي أنه يحتاجني لأمر هام جداً لن أندم عليه وسأربح من ورائه الكثير.

وركبت السيارة إلى جوار جراتسيللا فانطلقت تغني أغنية "بالوردو بيلفا" أي "أيها الوحش الضاري" وفجأة توقفت عن الغناء وسألتني: هل تكسب كثيراً من تجارتك يا

ماريو؟ قلت لها: بالطبع أكسب .. وإلا .. ما كنت أعدت الكرة بعد ذلك مرات كثيرة. .

- كم تكسب شهرياً على وجه التقريب؟
- حوالي ستمائة دولار.. قالت في صوت مشوب بالحسرة
- وهل هذا المبلغ يكفي لأن تعيش؟ إن لابي يشفق لحالك كثيراً سنيور ماريو.
- سنيور لابي صديقي منذ سنوات طويلة .. وأنا أقدر له ذلك.
- إنه دائماً يحدثني عن الإسكندرية .. له هناك تراث ضخم من الذكريات.!!

وفي فندق ريتز.. صعدنا إلى الطابق الثاني حيث حجزت لي جراتسيلا جناحاً رائعاً وبينما أرتب بعض أوراقتي فوجئت بها تقف أمامي في دلال وباصبعها تشير لي قائلة: "أونالتر فولتا" أيها المصري وهذه المرة "للإيطاليا نيتا" .. "محبة الوطن الإيطالي" .. وغرست أظافرها بجسدي بينما كنت أرتشف عبير أنوثتها وأتذوق طعمها الساحر وكانت لا تكف عن الهتاف: ليوباردو.. ليوباردو.. ماريو إيجتسيانو.

وعندما جاء لابي كان من الواضح أننا كنا في معركة شعواء انتهينا منها تواء.. أخرج من جيبه مظروفاً به خمسمائة دولار وقال لي إنه سيمر علي صباح الغد.. وأوصاني أن أنام مبكراً لكي أكون نقي الذهن.. وانصرفا بينما تملكنتني الأفكار.. ترى ماذا يريد مني؟ وما دخلي أنا فيما يريده لابي؟ وفي العاشرة والنصف صباحاً جاء ومعه شخص آخر يتحدث العربية كأهلها اسمه "ابراهيم" .. قال عنه لابي إنه خبير إسرائيلي يعمل في شعبة مكافحة الشيوعية في البلاد العربية.. رحب ابراهيم بماريو وقال له بلغة جادة مضعمة بالثقة:

إسرائيل لا تريد منك شيئاً قد يضرك.. فنحن نحارب الشيوعية ولسنا نريدك أن تخون وطنك.. مطلقاً.. نحن لا نفكر في هذا الأمر البتة.. وكل المطلوب منك.. أن تمدنا بمعلومات قد تفيدنا عن نشاط الشيوعيين في مصر وانتشار الشيوعية وخطرها على المنطقة.

وأردف ضابط المخابرات الإسرائيلي: كل ذلك لقاء ٥٠٠ دولار شهرياً لك. وعندما أوضحت له أنني لا أفهم شيئاً عن الشيوعية أو الإشتراكية.. وأنني أريد فقط أن أعيش في سلام. ذكرني لابي بأحوالي السيئة بالإسكندرية والتي أدت إلى تشتتي هكذا بعدما كنت ذا سمعة حسنة في السوق. واعتقدت أنني يجب ألا أرفض هذا العرض.. فهي فرصة عظيمة يجب استغلالها في وسط هذا الخضم المتلاطم من الفوضى التي لازمتني منذ أمد.. وتهدد استقرار حياتي.

الحصار في روما

عندما تسلمت زينب الرسالة الوافدة من إيطاليا، لم تكن تصدق أن يهتم بها هذا العابر المجهول إلى هذا الحد.. كانت قد نسيته بعدما مرت عدة أشهر منذ التقت به في خان الخليلي حيث تعمل بائعة في محل للأنتيكات والتحف.. وبعدما تردد عليها عدة مرات عرضت عليه السفر معه إلى إيطاليا لتشتري سيارة لتشغيلها سيارة أجرة في القاهرة.. فوعدها بأن يساعدها ثم اختفى فجأة ولم يعد يذهب إليها.. حتى جاءت رسالته تحمل طابع البريد الإيطالي وعنوانه وتليفونه هناك.. أسرعت زينب بالخطاب إلى خالها الذي يتولى أمرها بعد وفاة والديها، ولكنه عارض الفكرة وعندما رأى منها إصراراً رضى للأمر ووافقها.. سنوات وزينب تحلم بالسفر إلى الخارج للعمل.. لقد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها، ولم ترتبط بعد بعلاقات عاطفية تعوق أحلامها.. لذلك تفوقت في دراستها بكلية الآداب - جامعة عين شمس وعشقت اللغة الإنجليزية عشقاً كبيراً.. والتحقّت بعد الجامعة بالعمل في خان الخليلي بالقرب من بيتها في شارع المعز لدين الله بحي الجمالية.. حيث مسجد الحسين ورائحة التاريخ تعبق المكان وتنتشر على مساحة واسعة من الحي القديم العريق.

حجزت زينب تذكرة الطائرة ذهاباً وإياباً على طائرة مصر للطيران.. وبحقيبتها كل ما لديها من مال وفرته لمثل هذه الفرصة.. وفي مطار روما كان ماريو بانتظارها يملؤه الشوق لأول الضحايا الذين سيجندهم للعمل لصالح المخابرات الإسرائيلية.. وعندما رآته

كانت كمن عثر على شيء ثمين.. إذ صدمتها اللغة الإيطالية التي لا تعرف منها حرفاً واحداً.. وسرت كثيراً عندما وجدت ماريو يتحدث بها "كإيطاليان" أصحاب البلد.

اصطحبها إلى فندق رخيص في روما ثم تركها لتستريح وذهب هو إلى مسكنه ليرتب خطة تجنيدها التي رسم خطوطها عدة مرات.. وفي الصباح ذهب إلى الفندق حيث كانت الفتاة تنتظره فأخذها في جولة رائعة بسيارته لمنتزهات روما وأماكنها السياحية.. ثم ذهب بها في اليوم التالي إلى أماكن بيع السيارات المستعملة.. معتمداً أن يرفع لها أسعار السيارات مستغلاً جهلها باللغة الإيطالية.. واعتمادها عليه أولاً وأخيراً. وتعهد أيضاً أن تطول مدة إقامتها في روما للبحث عن فرصة شراء سيارة أفضل وأرخص وأقنعها بشراء فيات ١٢٥ دفعت فيها معظم ما تملكه من مال.. وما تبقى معها كان يكفي بالكاد مصاريف الشحن إلى الإسكندرية.

وصدمت الفتاة بعدما تبين لها أن فاتورة الفندق امتصت النصيب الأكبر من نقودها.. ولم تعد تملك مصاريف الشحن كاملة.. لقد خدعها ماريو عندما ذكر لها أرقاماً تقل بكثير الحقيقة عند شحن السيارة.. تركها ماريو لعدة أيام دون أن يتصل بها بحجة أنه كان في ميلانو.

وبكت زينب في حرقه وهي تحكي له عن حالها.. وكيف إنها لم تعد تملك أية أموال لتعود إلى مصر بالسيارة الواقفة أمام الفندق ومتوسلة أن يساعدها فوعدها بذلك.. ومرت ثلاثة أيام أخرى كانت زينب قد باعت حليها ولم تتبق معها سوى ساعة يدها الجوفياال التي لا تساوي شيئاً يذكر.. حاصرها ماريو جيداً وأفقدتها التفكير واستعمل معها أسلوب "صيد الغزلان" بأن أغلق أمامها كل الطرق.. وترك لها فتحة ضيقة لتنفذ منها إلى شبكته لتقع فيها ولا تخرج.

وظهر لها فجأة بعد غياب عدة أيام معتذراً بشدة.. واصطحبها للعشاء بأحد المطاعم الراقية.. وبعد أن جلسا عزفت الموسيقى مقطوعة إيطالية شهيرة عنوانها "مولتي جراتسي ميو أميتشو" أي "شكراً جزيلاً يا صديقي" فقالت زينب لماريو: طلبت منك قرصاً أردته لك في مصر فلم تجبني.. اعتدل ماريو في مقعده وقال بسرعة: نعم.. نعم.. لا مشكلة

إذن .. بعد غد سأتولى شحن سيارتك إلى الإسكندرية. ولم بعد غد؟ مشغول أنا غداً.. ولا أملك وقتاً مطلقاً قالها ماريو وتعمد ألا ينظر لوجهها" .. لقد وعدتني أن تدبر لي عملاً هنا في روما.. فإن ذلك سيعفيك من إقراضي أية أموال.. ماذا تقولين؟ ألم أخبرك أنني أبحث بالفعل عن عمل مناسب لك؟ أنت تقول "قالتها زينب مليئة بالحسرة والإحساس بالندم" فما كان من ماريو إلا أن أجاب: عموماً.. بعد غد ستكون سيارتك على ظهر السفينة.. أفهمت؟ وفي تلك اللحظة.. اقترب منها رجل وسيم تعدي الخمسين بقليل وقال بالإنجليزية بأدب جم: أسمحان لي بأن أطلب من إدارة المطعم إغلاق جهاز التكييف الحار حتى لا نصاب جميعاً بالبرد عند الخروج؟ ردت زينب في حماس بالغ ممزوج بالعرفان: تفضل.. وشكراً يا سيدي أردف الرجل قائلاً: معذرة.. هل أنت تونسية؟ أجابته بأن لكنتها تدل على ذلك وضحكت وقالت في افتخار: أنا من الجمهورية العربية المتحدة.. من القاهرة. هتف الرجل سعيداً: أوه.. ناسر يا له من زعيم عبقرى.. وفي حركة مسرحية سريعة مد الرجل يده الي محفظته.. وأخرج منها صورة لعبد الناصر يشرب من "القلة" ويجلس على الأرض بجوار صلاح سالم وأردف قائلاً: تمنيت أن أراه وأصافحه ذات يوم.. فهل يتحقق لي ذلك؟ تعال إلى القاهرة يا سيدي وأعتقد أن ذلك ليس بالشيء الصعب.. هكذا قالت زينب بفخر، وهي تتكلم الإنجليزية بطلاقة، وتكلم ماريو يخاطب الرجل بالإيطالية: أنتم تكرهون ناصر في الغرب.. وفي الشرق تتوقف الحياة تماماً حينما يتكلم.. تناقض غريب.

أجاب الرجل في بشاشة: نعم يا سيد.. ؟ ماريو.. ماريو إيجتسيانو "ماريو المصري". نعم.. نعم سنيور ماريو هذه حقيقة لا ننكرها.. فمنذ أزمة القناة والغرب لا ينسى ذلك لناصر أبداً.

واعترضت زينب على حوارهما بالإيطالية فقال لها ماريو إن لغته الإنجليزية ضعيفة جداً..

وجاءت فاتورة الحساب ففوجئت زينب بالرجل الغريب يصر على دفعها.. وعندما تمسك ماريو برأيه قال الرجل: إذن.. هلا قبلتما دعوتي على العشاء غداً؟ أجاب ماريو

موافقاً بينما تحرجت زينب ثم فاجأهما ماريو بإعلان اعتذاره لارتباطه طوال الغد.. فأبدى الرجل الأنيق تفهمه ونظر إلى زينب فتراجعت الكلمات على لسانها.. عندها لم يمهلهما وقتاً طويلاً لتفكر وقال موجهاً حديثاً إليها أنه سيلتقي بها في الثامنة مساء الغد في مطعم "فريسكو".. فقالت زينب في اضطراب "بعدما نظر إليها ماريو موافقاً" إنها لا تعرف الأماكن جيداً.. وبدأ الرجل سيلاً من الأسئلة عن جوانب حياتها فأجابته زينب بحسن نية وأخيراً قال لها في دبلوماسية شديدة تدل على خبرة عالية في إدارة حوار: لقاء الغد ستترتب عليه أشياء كثيرة مهمة لكلينا.. !! وبعد إنتهاء السهرة صحبهما بسيارته الفارحة وأنزل زينب أمام فندقها وانصرف.

وقضت هي وقتاً طويلاً تفكر فيما يقصده بعبارة الأخيرة.. وماذا سترتب عليها من أشياء مهمة؟؟ وفي مساء اليوم التالي كان في انتظارها بردهة الفندق كما اتفقا بالأمس.. وأخذها في جولة ليلية بنوادي روما وشوارعها ثم ذهباً معها إلى مطعم فريسكو الشهير.. حيث الأنواع الغريبة من الأسماك والمحار وكائنات بحرية مذهشة.

كان الرجل قد التمس مكاناً هادئاً في ركن بعيد وتوقعت زينب بأنه من زبائن المطعم المعروفين، للإحترام الجرم الذي قوبل به.. ولكنه انتشلها من حيرتها وقال لها بحرارة: أنسة زينب.. منذ الأمس وأنا في حيرة شديدة.. وكما تعلمين فأنا رجل أعمال بريطاني معروف.. والذي لا تعرفينه أنني انفصلت عن شريك لي منذ مدة قصيرة.. وكنت أنوي توسيع أعمالتي في لندن لكن أشار علي البعض باستثمار مشاريع إنمائية في جنوب أفريقيا.. وقمت بالفعل بالسفر إلى جوهانسبرج وزيارة كيب تاون وحصلت على بعض تقارير اقتصادية لتساعدني في اتخاذ قراري.. حتى كان لقاء الأمس الذي سبب لي حيرة شديدة فبرغم حبي لناصر إلا أنني لم أفكر من قبل في السفر إلى القاهرة لدراسة السوق المصرية وإقامة بعض مشروعاتي بها.. وتتهد الرجل فيما يشبه إحساساً بالندم وأردف: إنني الآن – وبإصرار وثقة – أريد اقتحام السوق العربية من خلال مصر.. ومن خلالك أنت.. قالت له زينب في دهشة: من خلالي أنا؟ نعم.. فأنت مصرية وجامعية طموحة.. تملكين اللغة العربية والإنجليزية والثقافة.. ويمكنني

الاعتماد عليك في إعداد تقرير اقتصادي عن أحوال مصر الاقتصادية ومشاكل التنمية بها ومعوقات السوق. ومن خلال هذا التقرير سأقرر ما إذا كنت أستطيع إقامة مشاريع إنمائية في مصر من عدمه.. ولذلك فهذا الأمر مهم بالنسبة لي ولك.. لأنك ستكونين مديرة لفرع القاهرة وتملكين حق اتخاذ قرارات لصالح مؤسستنا.

انفجرت أسارير زينب وهلت بشراً وسعادة لهذا الخبر المنهمر الذي أغدق عليها فجأة.. كانت تجلس أمامه ولا تملك بحقيبة يدها سوى ستة وعشرين دولاراً وبضع ليرات إيطالية لا تكفي ليوم آخر في روما.. واغرورقت عينها بدموع الفرح عندما فاجأها قائلاً: ومنذ اليوم سيكون راتبك ثلاثمائة دولار شهرياً.. صرخت بأعماقها لا تصدق أن غيمة النحس قد انقشعت.. وأن الحياة عادت لتضحك من جديد.. لقد مرت بها سنوات من الجوع والحرمان والحاجة.. وكلما ارتقت درجة من درجات الأمل انزلقت إلى الوهم وأحلام الخيال.. الآن جاءت أحلام الواقع لتزيح أمامها الأوهام فتراجع القهقري.

كانت تبدو من قبل وكأنها تفرق في لجاج من ماء ذي قوام.. الآن تطير في سماوات من الصفو اللذيذ.. أخيراً تحقق الحلم الذي طال انتظار اليتيم له.. حلم ليس بالمستحيل ولكنه كان المستحيل نفسه.. يا الله.. قالتها زينب وهي تتهد فتغسل صدرها الصغير من تراكمات اليأس وخيوط الرجاء.

أوصلها الرجل إلى الفندق بعدما منحها ٦٠٠ دولار مرتب شهرين ودفع عنها حساب الفندق.. وفوجئت زينب بماريو يسرع بشحن سيارتها ودفع مصاريفها ويودعها بالمطار.. وفي مقعدها بالطائرة أغمضت عينيها وجلست تفكر في أمر ماريو.. لقد أخبرته بأمر الرجل فأظهر موافقته.. وبرغم كونه تاجراً لم يأخذ منها مصاريف الشحن.. بل ألح عليها كثيراً لكي تأخذ منه مائة دولار في المطار.. وسلمها حقيبة هدايا بها علبة ماكياج كاملة وزجاجتا بارفان وحزام جلدي أنيق.

تشككت زينب في هذه الأمور وأخذت من جديد تستعرض شريط ما مر بها في روما.. وتذكرت الدورة الإرشادية التي حضرته في أحد مدرجات جامعة القاهرة قبل سفرها بأيام.

كان المحاضر يشرح أساليب الموساد في اصطياد المصريين في الخارج.. ولأن ماريو مصري مثلها ومجريات الأمور كلها كانت شبه طبيعية.. فقد طردت وساوسها التي تضخمت إلى حين.. وقررت أمراً في نفسها.. وفي مطار القاهرة انتحت بأحد الضباط جانباً وسألته سؤالاً واحداً.. وفي اليوم التالي.. كانت تستقل سيارة صحبتها إلى مقر جهاز المخابرات المصرية.. قالت كل شيء بدقة وسردت تفاصيل رحلتها إلى إيطاليا وكيف خدعها ماريو لتنفق كل ما لديها من نقود.. وحكت ظروفها النفسية السيئة التي مرت بها وكيفية تقرب رجل الأعمال البريطاني منها في تلك الظروف.. وكيف شحن ماريو سيارتها إلى الإسكندرية على نفقاته.. وهو التاجر الذي يسعى للكسب.. ؟ بل إنه عرض عليها مائة دولار أخرى.. ولماذا لم يعطها رجل الأعمال عنوانه في بريطانيا لتراسله وتبعث إليه بالتقارير التي طلبها؟ لقد أخبرها أن ماريو سيسافر إلى القاهرة عما قريب وعليها أن تسلمه التقرير الاقتصادي الوافر الذي ستعده عن مصر.

وتذكرت زينب أيضاً كيف أن ماريو طلب منها في المطار أن تهتم جيداً بالعمل الذي أوكل إليها ولا تهمله.. وعندما سألته هل لديك عنوان مكتب رجل الأعمال ؟!! أجاب بنعم في حين أنه من المنطقي أن يكون معها عنوانه.

لقد سلمها ٦٠٠ دولار وهي بلا شك لقاء قبولها التجسس على وطنها..

صراع العقول

وفوجئت زينب بما لم تتوقعه على الإطلاق.. صور عديدة لها مع ماريو.. قال ضابط المخابرات المصري أن المخابرات العربية على علم بأمره.. وتراقب تحركاته وتنتظر دليل إدانته وقال لها أيضاً: إن إسرائيل منذ قيامها في عام ١٩٤٨ وهي تسعى بشتى السبل لمعرفة كل ما يجري في البلاد العربية من نمو اقتصادي وتسليح وما لديها من قوات وعتاد.. ولذلك لجأت لشراء ضعاف النفوس والضمائر وجعلتهم يعملون لحسابها.. وينظمون شبكات التجسس المتعددة في العواصم العربية.. حتى إذا كشفت واحدة تقوم الأخرى مكانها وتتابع نشاط جواسيسها.. وتتفق إسرائيل الملايين على هذه الشبكات للصرف عليها.. وأن السبب الرئيسي لسقوط بعض الأفراد في مصيدة المخابرات

الإسرائيلية هو ضعف الحالة المادية.. وبالإضافة إلى الأموال الطائلة التي تنفقها الموساد على عملائها.. فإنها تفرقهم أيضاً في بحور الرغبة وتشبع فيهم نزواتهم.. وبذلك تتم له السيطرة عليهم.. لذا.. فقد أعلنت المخابرات المصرية في يناير عام ١٩٦٨ بأنها ستساعد كل من تورط مع العدو.. ووقع في فخ الجاسوسية بالإغراء أو التهديد.. وأنها على استعداد للتغاضي عن كل ما أقدم عليه أي مواطن عربي.. إذا ما تقدم بالإبلاغ عن تورطه مع الموساد مهما كان منغمساً في التجسس.. وذلك لتفويت الفرصة على المخابرات الإسرائيلية.. ووعد الزعيم جمال عبد الناصر صراحة بحماية كل من تورط بالتجسس لأي سبب.

وقد أسفرت هذه الخطة عن تقدم سبعة مصريين إلى جهاز المخابرات المصرية يعترفون بتورطهم ويشرحون ظروف سقوطهم.. وأضاف الضابط: لقد تكلمنا مع ماريو عدة مرات من قبل.. وأفهمناه بطريقة غير مباشرة بأننا على استعداد لمساعدة المتورطين دون أن يعاقبوا.. لكن يبدو أنه استلذ أموال الموساد.. وسيسقط على يدك يا زينب لأننا سنحصل على دليل إدانته من خلالك.. ووضعت المخابرات المصرية خطة محكمة لاصطياد ماريو.. وفي أول اتصال هاتفي من روما بعد أيام من وصولها.. أخبرته زينب بأنها مشغولة "بترجمة الكتاب" - وهو مصطلح سبق لهما أن اتفقا عليه - وعندما سألتها عن المدة التي تكفي لإنجاز "الترجمة" لأنه ينوي المجيء لمصر بعد يومين طلبت منه - حسب الخطة - أن يتأخر عدة أيام حتى تنجز العمل.

اطمأن ماريو وصديقه لردود زينب.. وقتعنا بأنها منهمكة في إعداد التقرير.. فلو أن هناك شيء ما يترتب في الخفاء لما ترددت في إيهامه بأنها أنجزت ما طلب منها.. وفي مكالمة أخرى بعدها بثمانية أيام.. زفت النبأ الذي ينتظره.. و ينتظره أيضاً رجال الموساد في روما.. وعلى ذلك أكد لها بأنه سيصل إلى القاهرة عما قريب.

سقوط الجاسوس "ماريو"

وبعد اللقاء المسجل بالصوت والصورة.. اتجه الخائن إلى شارع نوال بالدقي حيث شقة زوجته تغريد.. فمكث معها يوماً واحداً وحمل كاميرته الخاصة التي تسلمها من

الموساد وركب إلى الإسكندرية بالطريق الزراعي.. يصور المنشآت الجديدة التي تقوم على جانبي الطريق.. ويراقب أية تحركات لمركبات عسكرية أو شاحنات تحمل المدرعات.. وأمضى مع زوجته وجيدة عدة ساعات ثم عاد إلى القاهرة مرة ثانية بالطريق الصحراوي.. وكرر ماريو هذا السيناريو لمدة أسبوع بشكل متصل.. كان إخلاصه للموساد قوياً كعقيدة الإنسان أو إيمانه بمبدأ ما.. فألاف الدولارات التي حصل عليها من الموساد بدلت دماءه وخلايا مصريته وأعمته عن عرويته.. وجعلت منه كائناً فاقد الهوية والشعور.. بل كان لأموال إسرائيل الحرام فعل السحر في قلبه وزعزعة ثوابت إسلامه.. فلقد نسي أن اسمه محمد ابراهيم فهمي كامل.. مسلم.. من مصر.. وأن ماريو ليس اسمه الحقيقي الذي ينادى به.. وفي إيطاليا كثيراً ما مر على مساجد روما - دون قصد - فكان يتعجب ويتساءل: ماذا يعني الدين والأنبياء والرسول؟ وعندما اتصلت به معشوقته جراتسيلا - عميلة الموساد - تستقصي أخباره وأخبار ضचितه زينب أجابها بأن كل شيء على ما يرام.

وحدد لها ميعاد سفره إلى إيطاليا.. وبعدما أنهت زينب إجراءات الإفراج الجمركي عن سيارتها.. استعدت "هكذا ادعت له" للسفر معه.. فأخبرها بموعد الطائرة وأنه سيمر عليها ليصحبها إلى المطار.. وقبل السفر بعدة ساعات كان ماريو قد أعد أدواته.. وخبأ الأفلام التي صورها بجيوب سرية داخل حقائبه ونزع البطانة الداخلية لها وأخفى التقارير السرية التي أعدها بنفسه ثم أعاد إلصاقها مرة ثانية بإحكام فبدت كما كانت من قبل.

ومن بين تلك التقارير كان تقرير زينب الذي كان لدى المخابرات المصرية صورة عنه.. وبينما كان ماريو يغادر منزله بالدقي في طريقه إلى زينب ثم إلى المطار.. فوجئ بلفيف من الأشخاص يستوقفونه.. وأقتيد إلى مبنى المخابرات وأمام المحقق أنكر خيانتة لكن الأفلام والتقارير التي ضبطت كانت خير دليل على سقوطه في وكر الجاسوسية.. فاعترف مذهولاً بعمالته للموساد.. وأمام المحكمة العسكرية وجهت إليه الجرائم الآتية: الحصول على أسرار عسكرية بصورة غير مشروعة وإفشاؤها إلى المخابرات الإسرائيلية.. الحصول على مبلغ "٧ آلاف دولار" مقابل إفشاء الأسرار لدولة

معادية "إسرائيل".. التخابر مع العدو لمعاونته في الإضرار بمصر في العمليات الحربية.. تحريض مواطنة مصرية على ارتكابها التخابر.. والحصول على أسرار هامة بقصد إفشائها للعدو. وبرتاسة العميد أسعد محمود إسماعيل وعضوية المقدم فاروق خليفة والمقدم أحمد جمال غلاب بحضور ممثل النيابة العسكرية والمقدم عز الدين رياض صدر الحكم في مايو ١٩٧٠ بإعدام ماريو شنقاً بعد أن كرر الخائن اعترافه بالتجسس على وطنه.. مبيناً الأسرار العسكرية مقابل سبعة آلاف دولار.

وصدق رئيس الجمهورية على الحكم لعدم وجود ما يستدعي الرحمة بالجاسوس.. لم تنس المخابرات المصرية الدور الكبير الذي لعبته زينب للإيقاع بالخائن ماريو واصطياده إلى حيث غرفة الإعدام ومشنقة عشناوي في أحد سجون القاهرة. وكانت زينب بالفعل - أول مصرية - تصطاد جاسوساً محترفاً في روما.. لإعدامه في القاهرة!!